مراحـــــل العمـــــر في شعر غازي القصيبـــي، الرؤية والتشكيل

د/ حسين بن حمد دغريري

قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الانسانية– جامعة جازان– المملكة العربية السعودية

المُلخَص

يُعنى هذا البحث بدراسة مراحل العمر عند الشاعر غازي بن عبد الرحمن القصيبي ابتداءً من مرحلة الطفولة وانتهاء بمرحلة الشيخوخة والكهولة؛ حيث شكلت مراحل العمر عنده نغماً شعرياً متفرداً، ومحطة إبداعية متميزة، زخرت باتساع كمي في نتاج الشاعر، وتنوع شعري إبداعي.

مما استدعى الوقوف عليها، وكشف أبعادها في نتاج القصيبي الشعري، عبر ثلاثة محاور حاول من خلالها البحث تحقيق هذه الغاية هي: مراحل العمر والبعد الزمني، ومراحل العمر والبعد النفسي، ومراحل العمر: الموقف والرؤية، راجياً للبحث أن يكون قد وفق في محالة الكشف عن هذا الملمح الإبداعي عند القصيبي.

كلمات مفتاحية: مراحل العمر ، غازي القصيبي ، الأصوات الشعرية ، الأصوات الفكرية.

مُقَدِمَةُ :

يعدُّ الشاعر غازي بن عبد الرحمن القصيبي١٣٥٩هـ-١٩٤٠هـ/١٤٣١هـ-٢٠١٠م[١]، أحد أبرز الأصوات الشعرية والفكرية في المملكة العربية السعودية والعالم العربي، الذين شكل خطابهم الشعري معلماً لافتاً غدا به "خطابه من أبرز الخطابات في السعودية، إذ يتميز بتجربة شعرية خصبة، وغنية ساهمت في تطوير شكل القصيدة العربية ومضمونها في السعودية بنقلها من جفاف التقليد، وركونية التلقائية إلى أفق التجديد، وقد رافق هذا التطور الملموس في تجربته الشعرية تطوراً بارزاً في بنية المضمون، واللغة والصورة، والتراث، والإيقاع"[٢] من خلال نتاج شعري واسع، وتجربة ممتدة لأكثر من خمسين عاماً، وعمر زمني امتد قرابة سبعين سنة.

إنَّ هذا العمر الزمني، والتجربة الشعرية الفياضة جعلت القصيبي يقف عند مراحل العمر ابتداءً من الطفولة، ومروراً بالنضج، ووصولاً إلى الكهولة والشيخوخة، عبر وقفاتٍ شعرية تكاد تشكل محطات بارزة، وواضحة في مسيرته الشعرية تناولها- كما لم يتناولها غيرة من الشعراء السعوديين-بحس الشاعر، ورؤيته، ورهافة المبدع الذي يدرك تفاصيل كل مرحلة، وانعكاساتها الوجدانية والنفسية، ومعبراً عنها تعبيراً يلامس أبعادها العميقة؛ الأمر الذي جعل مراحل العمر عند القصيبي تغدو ملمحاً إبداعياً يستدعي التوقف، والدراسة، والتحليل؛ خاصة وأن الشاعر تكاد لا تمر به مرحلة من مراحل العمر إلاَّ ويتناولها بقصيدة، أو الماحة إشارية، ولهذا جاء هذا البحث ليكشف تناول القصيبي هذه المراحل في أبعادها الزمنية والنفسية، والفلسفية.

المحور الأول:

مراحل العمر والبعد الزمني عند القصيبي:

يجسد الإحساس بالزمن في بعده الذَّاتي وصيرورته الواقعية قضية من أهم القضايا في الحياة الوجودية لأي إنسان؛ "إذ إنها تتصل بحياة الإنسان على الأرض؛ فهو يولد طفلاً، ثمَّ يبلغ أشده، فإذا امتد به العمر خطَّ الشيب رأسه، ثم يصيبه الكبر ويصير شيخاً... وهذه التغيرات النفسية والعقلية تأتي مصاحبة للتغيرات الجسمانية من مشيب يخط الراس، وضعف يدبُّ في الجسم؛ ولذلك تجد من وخط الشيب رأسه لا يفتأ يتحسر على الشباب، ويذكر أيامه، ويتمنى عودته، ويحسد الشباب على ما يتفجرون به من قوة، كما أنه يكره المشيب، فهو لا يفتأ يذكره بغيضاً إلى نفسه: فهو يقطع عليه طريق الاستمتاع بالحياة كما يستمتع بها الشباب... فإذا كان هذا هو شعور الإنسان العادي فما بالك بالشعراء وهم على ما هم عليه من حسٍ مرهف، ومن ظمأ إلى الجمال الذي يستلهمون منه أشعارهم؟"[٣].

والشاعر غازي القصيبي واحد من هؤلاء الشعراء الذين شكَّل لهم الإحساس بالزمن ضاغطاً وجودياً ونفسياً عبَّر عنه تعبيراً شعرياً واسعاً عبر مراحل الزمن العمرية التي تناولها في نتاجه الشعري، والتي

(١) انظر: ترجمة الشاعر تفصيلاً: "موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين خلال مائة عام"، ص٣٣١-٣٣٥، وانظر: "غازي القصيبي: حياته ومختارات من شعره"، ص٥ وما بعدها، وانظر" سيرة شعرية"، ص٣٥ وما بعدها.

(٢) "شعر غازي القصيبي: دراسة فنية"، ص١١.

(٣) "قضية الزمن في الشعر العربي: الشباب والمشيب"، ص٧-٨.

يمكن أن نطلق عليها: (الزمن الواقعي) في ثلاث محطات شعرية هي: الطفولة- والشباب والنضج- والكهولة.

أ-الطفولة: هي مرحلة العمر الغضَّة النقية في حياة كل الكائنات الحية إذ" هي المرحلة الأكثر أهمية في حياة الإنسان، إذ تأخذ في مراحلها المتعددة ما نسبته الثلث إلى الربع من حياته في المعدل العام للسن البشري عدا أنها أكثر المراحل تخزيناً للأحداث والمواقف والذكريات التي يمر بها؛ إذ هي في الغالب تخزّن أحداثها في الذاكرة العميقة التي تحفظ رموزها أطول فترة من الزمن"[٤]. فهي إذن مرحلة الصفاء والطهر والنقاء هي: عالم بلا زيف، بلا خلفيات، هي عالم جديد كل يوم فيه البراءة التي لا تعرف المواربة"[٥].

وقد تشكل هذا العالم ببراءته ونقائه وصفائه عند غازي القصيبي في أكثر من معالجة شعرية؛ ولاشك أن تصوير هذا العالم بكل آفاقه وملامحه جاء في فترة متأخرة عنده بعد أن تجاوزه الشاعر؛ خاصة وأن بدايته الشعرية كانت مع أول سنوات الدراسة الثانوية، بعد أن دلف إلى بداية الشباب كما يؤكد هو ذلك[٦].

وغالباً ما يتشكل عالم الطفولة عند القصيبي عالماً جميلاً يتراجع إليه بذاكرته في كل مراحل العمر التي عاشها؛ إذ " يعيش القصيبي زمناً داثرياً يسير باتجاه عكسي من الماضي وإليه مما يمنح شعره سمة الالتفاف حول الجانب المتجاوز من حياته: الخارج من زمن القول الشعري، ممثلاً- في الغالب- في جماليات الطفولة، والعجز عن الإفلات من إشراقات المشاهد الأولية"[٧]؛ ولهذا تجده حيناً يصور هذا العالم ببراءته وصفاته، ولحظات عيشه له فيقول:

كنتُ بريئاً
أهوى الألعاب
أهوى أن انطلق سعيداً
فوق الأعشاب
أن أبني بيتاً من رملٍ
أن أهدمه فوق الأصحاب[٨].

وحين يحاول الهروب من واقعه المؤلم إلى عالم الخيال، والجمال والنقاء لا يجد أمامه إلا العالم الطفولي يلوذ به مع محبوبته، يقول:

نفرُّ فديتكِ نحو الطفولة
لو ساعتين
فنأكل في الشمس تفاحتين
....
نفرُّ فديتك نحو الطفولة
مما يقولون عني
لأني أغني
لأني إلى أن أموت أغني
...
نفر فديتك نحو الطفولة
لو ساعتين
وإن ضاع منَّا طريق الرجوع
نهيم على وجهنا ليلتين
ونغرق... نغرق في ضحكتين[٩].

وأحياناً يجد في الطفولة المتواشجة مع الصحراء عشقاً أبدياً، يتراجع إليه بعد غربته وترحاله، يلتمس في أحضان صحرائه الأم الحنون التي تعيد له طفولته الغائبة المفقودة، يقول مخاطباً الصحراء:

وعدت إليكِ.. ألقيتُ برساتي
على الرمل
وغسلتُ الوجه بالطَّل
كأنكِ عندها ناديتني
وهمستِ في أذني
"رجعتَ إليّ يا طفلي"؟
أجل .. أماه .. عدتُ إليكِ
طفلاً دائم الحزن[١٠].

لقد اقترن تناول القصيبي الطفولة بأمنياتٍ جامحةٍ للعيش في ظلال هذا العالم، والعودة إليه، لأنه يجد في ثنايا هذا العالم المخلِّص من ضغوط الواقع وتكلسه، حيث طهارة الطفولة وصفائها؛ ويظهر هذا جلياً في قصيدته:(**أفكار صغيرة**)، التي يقول فيها:

لو مرة تقول: "لا"
نطهر من نفاقنا
نموت كالأطفال أبرياء[١١].

إن الهروب من تناقضات الواقع، وزيفه عبر آلية التمني التي تكشف تجليات المفارقة بين زمنين متناقضين : زمن الطفولة ببراءته، وزمن الكبار بنفاقه، وهو ما عبر عنه المقطع السابق بكل جلاء؛ وبهذا نقف أمام مرآتين متقابلتين، تصبح كل واحدة منهما خليفة مُشوِّهة للأخرى، الأولى: مرآة الهروب من الواقع، والنكوص إلى عوالم الطفولة، والولوج إلى الملامح الحقيقية للنفس البشرية كما يريدها الشاعر، أو ينحو إليها عقله الباطن، وملكاته الداخلية الزمنية في عالم برئ ملئ بالسعادة والفرح والأحلام الوردية... يقابلها على الوجه الأخر خلفية الواقع المرّ الذي يعيشه... فتصبح كلُّ مرآة صورة مُشوِّهة للأخرى تتنازعان نفس الشاعر، فتبعثران أوراق الأمل في ذاته فتخرج بعفوية الفنان تلك الصور المتشظية للروح الشاعرة"[١٢]، والشاعر بهذا كله يهرب من واقع حزين مؤلم إلى عالم

(٤) "الشاعر وذاكرة الطفل في الشعر العربي الحديث"، ص٥.
(٥) "آفاق شعرية: قراءة لما وراء النص"، ص٩.
(٦) انظر: "سيرة شعرية"، ص١٨.
(٧) "شعر غازي القصيبي: دراسة فنية"، ص٧٢.
(٨) "المجموعة الشعرية الكاملة"، ص٥٦٢.
(٩) "المصدر السابق"، ص٥٠٧، ٧٠٧، ٨٠٧.
(١٠) "السابق"، ص٢٦٣-٢٦٤.
(١١) "السابق"، ص٣٣٥.
(١٢) "الشاعر وذاكر الطفولة في الشعر العربي الحديث"، ص١٢٥-١٢٦.

المثل والخيال والطهارة والذي يجده الشاعر متمثلاً في عالم الطفولة البريء.

إن إحساس الشاعر بعالم الطفولة دفعه إلى التعايش معه، والذوب الوجداني فيه من خلال خطاب الطفولة في أبنائه وأحفاده؛ "فالحنين إلى الطفولة، والتقرب من الأطفال، والتحبب لهم سمة إنسانيته رفيعة، والشاعر بما يمتلكه من حب للأطفال والحياة أولى بهذه العاطفة الإنسانية"[١٣]، وقد شكلت ابنته: (**يارا**)، وحفيده (**سلمان**) في عالمها الطفولي محطة لرؤية الطفولة وخطابها عند الشاعر، حيث تجده مثلاً يخاطب ابنته: (**يارا**) في ليلة عرسها في قصيدته: (**أطفلة الأمس هذي**) قائلاً:

أطفلة الأمس هذي ؟ أين دمُيتها؟
وأين مهدٌ أبـاكُ الليـــــل أرمقـــه؟
أين الحصان الذي كانت تلقبـــه
"بابا" .. تكبّله حينـــــا و تعتقـــه؟
وأين كومـــــــة أشيائـــي تبعثرهـــا؟
وأين دفتر اشعـــــاري تمزقـــــــه؟
وأين في الرمل بيت كنتُ أصنعه
لها فتسكنُ فيه ثم تسحقـــــــه؟
وأين راحت أساطير ألفقهـــــــا
في عالمٍ من خيالات أنمقه؟[١٤].

أما سلمان فقد غدت رغبة العودة إلى عالمه الطفولي أمنية يتمناها الشاعر لامتلاء هذا العالم بالبراءة والنقاء، يقول:

سلمان!
سلمان هل تمنحني
تذكرة الدخول في عالمكِ الصغير؟
في عالم الدُّمية والحليب والسرير
كل الكبار فيه طيبون
وإن بكيتَ بغتةً لا يغضبون
وإن ضحكتَ فجأةً يقهقهون.
وأنت يا سلمان في دنياهم
السلطان والمليك والأمير[١٥].

إن الحديث عن الطفولة عند غازي القصيبي هو حديث مرتبط دائماً بالحنين إلى الماضي، والإعجاب به، وتمني العودة إليه، "من خلال الإحساس بالزمن، ليعكس ذلك الارتباط القوي بينه وبين الحياة، فهو يعدُّها المؤثر الأول في حياته بوصفه شاعراً؛ فالحياة عمر الإنسان تنعكس في نتاجه الادبي الذي يسجل ذلك الإحساس، ويرصد تلك المشاعر المتباينة من خلال الزمن نفسه"[١٦].

ب-النضج: مرحلة الأربعين:

مثلما حظيت الطفولة بأحلامها الوردية، وأمانيها الجميلة، وعالمها النقي بتناول القصيبي فقد حظيت –كذلك- مرحلة النضج –الأربعين- بنصيب من تناوله، وإن كان تناوله هذه المرحلة قد امتزج بشيء من القلق إضافة إلى الحزن على المنقضي من عمره، والمنصرم من حياته، وقد حفلت معالجاته الشعرية لهذه المرحلة العمرية –كذلك- بالحديث عن المرأة، التي شكلت محوراً بارزاً في كل معالجاته لمراحل العمر، إلاَّ أنها –هنا- تجلت برموز، ودلالات تجاوزت بها المرأة الذات والجسد إلى المرأة الرمز؛ وقد أكَّد غازي القصيبي هذه العلاقة الحميمية مع المرأة في شعره قائلاً: "كانت المرأة جزءاً من حياتي، وكان من الطبيعي أن تكون جزءًا من شعري، لقد وُصفتُ مراراً بأنني شاعر امرأة إما بوجهها المباشر، أو رمزاً يمثل الأرض، أو رمزاً يشير إلى الخلاص، أو هذه الأشياء مجتمعه. وإذا كنت لا استطيع أن أتصور لنفسي حياة بدون امرأة ،فأنا بالضرورة لا استطيع أن أتصور شعراً بدون امرأة"[١٧].

لقد كانت مرحلة سن الأربعين العمرية من أبرز المحطات الشعرية التي تناول فيها الشاعر الحديث عن مرحلة النضج والشباب بقلقها، وحزنها، واستدعاء صورة المرأة الرمز، إذ خص هذه المرحلة بأكثر من تناول شعري، وخاصة في ديوانه: "**العودة إلى الأماكن القديمة**"، مدّثراً تناوله بالحنين الطاغي إلى الماضي، وهذا الحنين يلحظه الناظر بوضوح في معالجات مراحل العمر عند القصيبي، وقد أدركه الشاعر حين قال:" يبدو الحنين إلى الماضي في عدد من قصائد الديوان؛ ولعله لا يبدو بكل أبعاده وآماده كما يبدو في قصيدة العودة إلى الأماكن القديمة. لقد تصور البعض أني كتبت هذه القصيدة في البحرين على إثر عودتي للعمل سفيراً للملكة فيها سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م إلاَّ أنها في حقيقة الامر كُتبت قبل ذلك بسنين عندما دعتني وزارة الإعلام البحرينية لإحياء أمسية شعرية في البحرين كانت الأولى في قرابة عقدين من الزمن، شعرت وقتها أن الماضي يعود إليّ بكل أوجاعه وأفراحه... والحنين إلى الماضي ينتظم عدداً من القصائد الأخرى: (**يارا والشعرات البيض**)، و(**نفِّر فديتك**) و(**تباريح البئر القديمة**)، بل إن التجربة الأربعينية أدت إلى أن تتكرر كلمة الأربعين مع كل قصيدة من قصائد الحنين إلى الماضي"[١٨].

ولعل قصيدته: (**أمام الأربعين**) تأتي شاهداً بارزاً على هذه المرحلة؛ فهي أقرب ما تكون إلى اعتراف ذاتي أمام سن الأربعين، يقول فيها:

وها أنذا... أمـــام الأربعيـــــــن
يكاد يؤدني حمل السنيـــــن
تمرُّ الذكريات رؤى سنيـــنٍ
تلون بالمباهج والشجـــونِ
إذا ما غبتُ في طيف سعيد
هفت عيني إلى طيف حزين
عزفتُ الحبَّ أفراحاً تغنـــى

---

(١٣) "الرومانسية في الشعر السعودي الحديث"، ص١١٤.

(١٤) ديوانه:" عقد من الحجارة" ، ص٥٣.

(١٥) ديوانه:" يا فدى ناظريك"، ص١٣-١٤.

(١٦) "صورة المرأة في شعر غازي القصيبي: دراسة تحليلية"، ص١٠٤.

(١٧) "سيرة شعرية"، ص٢٢١.

(١٨) "سيرة شعرية"، ص١٣١-١٣٢.

وذقت الحبَّ كاساً من أنين
وجربت الأنام فكان أقســـى
من الأعداء إعراضُ الحنين[١٩].

وفي معظم تناول الشاعر للأربعين يكون الحديث عن تعب الحياة، وافتقاده السعادة، وعذاب الروح، وارتقاب المصير المجهول، والخوف من مفاجآت المستقبل؛ لهذا جاء حديثه مكتسياً بنغمة الحزن والألم:

تعبتُ من المسير على الفيافـي
وجري في النجود وفي الحزون
تسائلني القوافـــــي ما مرادي؟
وينسكب الهجير على جبينـــي
وتنأى الواحة الخضراء عنِّـــي
كما تنأى السعادة عن ظنوني
....
أطالع في المودع من شبابـــي
كما نظر الغريق إلى السفيـــن
وأرتقب الخبئ من الأماســـي
بذعر الطفل من غدة الخؤون[٢٠].

وتظل مرحلة الأربعين نغماً ممدوداً نحو الشجن والحزن والتحسر على الماضي حتى والشاعر يمد شراعه في بحار الحب سواءً أكان حباً للمرأة الذات، أم المرأة الرامزة للأرض والوطن؛ إذ تجده –على سبيل المثال في قصيدته: **(أغنية حب للبحرين)** يجسد من البحرين محبوبة أنثوية يسكب بين يديها صور ماضيه، وذكرياته التي :" تتراوح بين الذكريات الجميلة التي قضاها هناك أيام الصبا، وعنفوان الشباب، والتغني بجمالها، ومحاسنها، مازجاً ذلك بالطبيعة من حولها، والحزن على فراقها، والبعد عنها؛ فالبحرين هي الأم التي يجد عندها حنان الطفولة، وهي الحبيبة التي يرتشف منها معاني الحبّ، وهي الملجأ من عاصفات الحياة"[٢١]، يقول:

بحرين هذا أوان الوصل فانسكبـــي
عليَّ بحرين من درٍ ومـــن رطـــــــب
تنفسي في شجوني وأدخلي حُرقـــي
واسترسلي في دمائي واسكبي تعبي
وسافري في عيوني يا معذبتـــــــــي
بالهجر يا ظمأي المعطاء يا سغبي [٢٢].

وهنا تظلُّ الأربعون عند الشاعر شجناً، وشجىً ،وتاريخاً مثقلاً بالنصب.

وهل تذكرتِ وجمي رغم ما انقشعت
سود الليالي على خديّ من كتـــــب؟

الأربعون غصونٌ خطها قلـــــــــــمٌ
من الشجون وتاريخ من النصب[٢٣].

حتى الحب في مرحلة الأربعين يتحول عند الشاعر إلى حبِّ اليباب، والخريف الذي يعقب الربيع، فتتحول جماليات الأشياء في عينيه إلى الأسى، والشجى والألم، يقول في قصيدته: **(الموت حباً)**:

أريد أن تمنحيني الموت والكفنا
فقد منحتكِ عمري والشبابا أنـــا
وقد وهبتكِ من شعري قلائـــــده
ومن خزائن قلبي ما غلا ثمنـــــا
....
واليوم جاء الخريف الفظُّ يسألنـي
متى رحيلك ؟ كم تنوي البقاء هنا؟
وأقبلتْ من وراء الغيب هامســـــةً
مدائن الغيب هيا فاللقـــــاء هنـــا
الأربعون عويلٌ مـــــلء أوردتـــــي
وفي شفاهيَ يبكي الصيف واللبنا
....
مات الصبي الذي قد كان يسكنني
وكنتُ أسكنه والكائنـــات لنـــــــا
مات الصبي فلا شِعرٌ ولا فـــــــرحٌ
ليولد الكهل دنياه أســىً وونـــــــى
أقول والألم المعطاء يشنقنـــــــــي
أقول لو تسمعين الشجو والشجنا
أريد أن تمنحيني الموت والكفنـــا
فقد منحتكِ عمري والشباب أنا[٢٤].

إن المرأة تتجلى هنا رمزاً للحياة التي يتشبَّث بها الشاعر رغم وطأة إحساسه بالأربعين، وشدة شعوره بها؛ "إن إحساس القصيبي بالزمن والحياة يشكل عاملاً مهماً في تكوين صورة المرأة الحياة، فيبدو في حالة من العجز أمام وطأة العمر بشكل غريب ومرضي، وأصبح هذا الإحساس يشكل هاجساً ذاتياً... مما جعل وجود المرأة أساساً في تكوين هذه الصورة"[٢٥].

وتأتي قصيدته: **(يارا والشعرات البيض)** أنموذجاً بارزاً تعكس صورة من الأبعاد الوجدانية التي رسمتها مرحلة الأربعين، من خلال حديث حميمي بين الشاعر وابنته **(يارا)** التي مالت تلتقط ما ابيضّ من شعره بعد أن حاصرته الأربعون حراباً أدمت عمره وقلبه حزناً على الفائت من عمره:

مالتْ على الشعراتِ البيـــض تقطفهـــا
يارا وتضحـــك لا أرضـــى لك الكبـــرا
يا دميتي ! هبكِ طارت المشيـــب هنـــا

(١٩) "المجموعة الشعرية الكاملة"، ص٦٥٥-٦٥٦.
(٢٠) "المصدر السابق "، ٦٥٦-٦٥٧.
(٢١) "صورة المرأة في شعر غازي القصيبي"، ص٩٥.
(٢٢) "المجموعة الشعرية الكاملة"، ص٨٠٩.
(٢٣) "المصدر السابق"، ص٨٠٩.
(٢٤) "المجوعة الشعرية الكاملة"، ص٨٠٠، ٨٠٢، ٨٠٣.
(٢٥) "صورة المرأة في شعر غازي القصيبي"، ص١١٠-١١١.

فما احتيالكِ في الشيب الذي استترا؟
وما احتيالكِ في الروح التـي تعبـــــت؟
وما احتيالكِ في القلب الـذي انفطــرا؟
وما احتيالــكِ في الأيـــام توسعنـــــي
حرباً وتسألني: "من يا تُـرى انتصـــرا"؟
يا دميتي حاصرتني الأربعون مـــــدىً
مجنونةً وحرابـــاً أدمـــت العمـــــرا[٢٦].

إن الأربعين مع أنها مرحلة الاكتمال والنضج العمري في الحياة الإنسانية كونها أقرب إلى الشباب والتدفق إلاَّ أنها عند الشاعر قد جاءت مكتنزة بمشاعر الحزن والتشاؤم، وأحياناً باليأس؛ وإن كان البعض قد وجد في هذا التشاؤم عند الشاعر نزعة رومانسية غالبة[٢٧] غير أن الشاعر حاول تعليل هذه الظاهرة في شعره كله بما فيه شعره الذي تناول الأربعين حين ربطها بحياته، وظروفه، وولادته ومعيشته؛ حيث ولد الشاعر في أحضان بيئة نفسية حزينة فقد فيها جده لوالدته، ثم بعد ولادته توفيت أمه، مؤكداً ان الجو المأساوي الذي أحاط بولادته ونشأته قد ترك بصمات الحزن والكآبة في حياته، إضافة إلى تعليله هذه الظاهرة من خلال سيكولوجية الحزن التي يراها عاطفة حادة مستقلة بخلاف السعادة الهادئة التي لا نكاد نشعر بها إلاَّ عند فقدها؛ فمشاعر الحزن عنيفة قوية تترك أثراً عميقاً على حياته، ومن ثمَّ تنعكس على مشاعره، وأحاسيسه وانفعالاته التعبيرية[٢٨].

ويبدو أن لمثل هذا التعليل من الشاعر وجاهته من جانبين:

الأول: أنه ألصق بحياة الشاعر، ومراحل تكوينها، والتي انعكست آثارها على تعبيره الشعري.

والثاني: كون تفسير الشاعر-وهو الأدري بذاته- أقرب إلى الدقة من مجرد ربط التفسيرات بمظاهر وظواهر عامة يندرج تحتها غيره من الشعراء كظاهرة التأثر والتأثير بالاتجاه والرومانسي، وقد أكد الشاعر ذلك حين سُئل عن تصنيف بعض النقاد له تحت إطار الاتجاه الرومانسي فقال:" يجب أن نعرف أن هذه مجرد تصنيفات من وضع النقاد والأكاديميين والمنظرين... وهي أبعد ما تكون عما يسميه المناطقة التعريف الجامع المانع... جميع هذه التصنيفات ظهرت في التراث الأوربي في واقع تاريخي محدد، وعندما نقلت خارج سياقها نقلت بكثير من العشوائية دون فهم أحياناً"[٢٩].

جـ - الكهولة: مرحلة الخمسين –الستين- السبعين:

تتجلى هذه المرحلة العمرية من حياة القصيبي حافلة- من حيث النتاج الشعري- بزخم إبداعي واسع؛ نظراً لامتداد المرحلة الزمنية التي شملت هذه الفترة؛ حيث امتدت لأكثر من ثلاثين عاماً؛ الامر الذي جعل التعبير عن هذه المرحلة العمرية يشغل حيزاً زمنياً وشعرياً واسعاً عند الشاعر، ويغدو متسماً بمزيج من رهافة الحس، وعمق المعنى، ومرارة التجربة، والحلم بواقع مثالي يتفلَّت من بين يدي الشاعر؛ ولعل السبب في هذا يعود بالدّرجة الأولى إلى ما أشار إليه البحث سابقاً، آلا وهو الإحساس العميق بوطأة الزمن على نفسه، وسرعة تقضيه، أو ما يمكن أن نسميه "سطوة الزمن النفسية على داخله، وما تكرسه من شعور بالكهولة، والفقد، والإحباط، وانعكاس ذلك كله على الواقع من حوله"[٣٠]؛ ولهذا تجده أحياناً يحاول ان يقبض بهجة اللحظة، وجمال الحاضر الذي بحياه، وذلك حين "يتوقف الزمن في سيرورته الدائرية عند نقطتين على طرفي نقيض: المتعة والسأم، تكتسب المتعة صفات الواحة، اللحظة الجميلة عندما تتجسد في لقاء المحبوبة"[٣١]، وهذا ما يشير إليه الشاعر حين يقول:

والعمر هل عمري سوى لحظة على جناح الموعد الأخضر[٣٢]

وإن كانت هذه المرحلة الزمنية من عمره قد جاءت امتداداً لنظرته للمحطات التي تنصرم من عمره، من خلال شعوره الذي ما فتئ يذكره في دواوينه الشعرية بأنَّ كل لحظات العمر ما هي إلاَّ ريشة في مهب الريح، ودمية سالت على غضن الصبا العاري:

وجودي ريشـــــةٌ تلهـــو
بها نقمـــــة إعصـــــــار
وعمري دمعةٌ سالـــــت
على غصن الصبا العاري[٣٣].

ليأتي التصريح بما يختلج في نفسه في مرحلة الخمسين واضحاً جلياً، مؤكداً بأنه في هذه المرحلة ليس لديه إلاَّ الملال، وفقدان السعادة، ومن كان كذلك فإنه لا يستطيع أن يمنح السعادة الآخرين، وحتى لو كان ذلك الآخر هو محبوبته؛ يقول:

فديتكِ ما الذي تبغين منـــــي
وما عندي سوى عرس الملال
من الخمسين للستين قفـــــرٌ
يجرُّ خطاتي مـــــــن آلٍ لآل
أيحبوكِ السعادة من نعاهـــا؟
أيمنحكِ اليقين أخو الضلال؟[٣٤].

إن قصيدة الشاعر (خمسون) هي أبرز شاهد على مشاعره وهواجسه في هذه المرحلة الزمنية من عمره إذ تجده يقول فيها:

خمسون تدفعكَ الرؤيـــا فتندفـــعُ
رفقا بقلبك كاد القلـــب ينخلـــع
من الفيافي التي آبارهـــا عطـــشٌ
إلى البحار التي شطآنهـــا وجـــع
وأنت في أذرع الإعصار متكـــئٌ
على الرياح فما ترســـو ولا تقـــعُ

---

(٢٦) "المجموعة الشعرية الكاملة"، ص٦٩٥-٦٩٦.
(٢٧) انظر:" الاستثناء : غازي القصيبي شهادات ودراسات"، ص٥٢٠.
(٢٨) انظر: "سيرة شعرية"، ص٥١.
(٢٩) "سيرة شعرية ج٢"، ص٩٧-٩٨.
(٣٠) "شعر غازي القصيبي: دراسة فنية"، ص٧٤.
(٣١) "المرجع السابق"، ص٧٥.
(٣٢) "المجموعة الشعرية الكاملة"، ص٢٣.
(٣٣) "المصدر السابق "، ص٩٩-١٠٠
(٣٤) ديوانه: "يا فدى ناظريك"، ص٩٠.

خمسونُ ما بلغ الساري ضحى غده
ولا الغيوم التي تخفيه تنقشـــــــع
أما تعبت؟ فإن القوم قـد تعبـــــوا
ألا رجعت ؟! فإن القوم قد رجعوا
هلا استرحت؟! فأقران الصبا هدأوا
هلا غفوتُ فأنضاء السُّرى هجعوا[٣٥].

وتكاد لفظة الخمسين تتكر في كل بيت في هذه القصيدة بشكل متتابع في كل مقطع لتعكس هاجس الخمسين وسطوته على ذات الشاعر؛ ولا غرابة في هذا فقد أكد الشاعر أن هاجس العمر هو الهاجس الذي ينبض به شعره كله، ويعرفه عنه كل قرائه، ولكنه بلغ ذروته في هذه القصيدة[٣٦]:" مع انتهاء عقد الأربعين ذهب ذلك الشعور الصاخب العنيف بتطاير الشباب ليحل محله شعور أهدأ، أكثر تأقلماً مع الواقع، وإن لم يكن بالضرورة أقل شجناً، (خمسون) تنعي الشباب الذاهب، وتستعرض صفحاته المليئة بكل أنواع الإثارة"[٣٧]:

خمسون ما مرَّ يوم دون معركـــــــة
أما تولاك في أحضانها الجـــــــزع
خمسون ما مرَّ يوم دون جرح هوىً
ألم يمزق حشاكَ الوجد والولـــــــع
خمسون ما مرَّ يوم دون أغنيـــــــة
أما سئمتَ القوافي وهي تصطرعُ[٣٨].

إن الخمسين وهي تحتضن كل هذه الأسئلة قد غدت أداة لجلد الذات، ومعاقبتها، ولومها وقد تحملت أتعاب السنين الخوالي، وعذابات الناس، وجراحاتهم:

خمسون تحمل جرح الناس يا رجـــــلاً
جراحه من عذاب الكون ترتضـــــــعُ
أعطيتهم من كروم الروح ما عجـــــزت
عنه الكرام فهل ساغوا الذي كرعوا؟[٣٩].

لقد كان حصاد الخمسين شعوراً بالجزع، وتمزقاً نفسياً نتيجة لذهاب الأصحاب، وقرب الأعداء، وتلاشي الحب، وجفول المرأة العاشقة ؛ كل ذلك جعل من زمن الشاعر زمناً خريفياً يحاول أن يتجاوزه، ولو على مستوى الشعور، والتعلق بأهداب الزمن؛ لذلك تجده يقول:

خمسون دبت إلى الفودين فاشتعلا
وا حُرقة الرأس فيه الشيـب والصلـع
وأنت ما زلت طفلاً فـي مباذلـــــــه
فأين منك الوقار الحلو... والورع؟
ما رفرفت نظـرة إلاّ وعاجلهـــــــا
شوّقٌ يمزق أضلاعـاً ويقتلـــــــعُ
لكل شقراء أو سمـراء متســـــــــعٌ
فيا لقلبك ما يحـــوي وما يســـعُ[٤٠].

والشاعر نفسه يؤكد محاولته التجاوزية خريف العمر في مرحلة الخمسين حين قال:" هناك محاولة لإعادة صياغة الخريف، بحيث يصبح بداية الحياة لا نهايتها، قد تكون المحاولة صادقة، وقد تكون من قبيل إذا لم يكن ما تريد فأرد ما كان، ولكنها على أية حال تضفي على الخريف ألواناً جديدة من القدرة والحيوية"[٤١]؛ ولعل هذا ما دفع الشاعر إلى "التوجه إلى خلق أزمنة محوَّره، ولو على المستوى الشعوري بإعادة الزمن من الهرم إلى شبابه، وهذه الأزمنة تغني القصيبي عن زمنية الداخلي والخارجي المليئين بالآلام والعذاب"[٤٢].

ومن هنا يظلُّ القصيبي متشبثاً بعتبات الزمن آملاً أن تنتظر لحظات عمره، وتتوقف ساعات زمنه عن الرحيل ؛لأنَّ لديه ما يمكن أن يشارك به في الحياة، يقول:

الأربعون أقلعـــــــــت
كزورقٍ منكســـــــــر
وهذه الخمسون تدنو
كالخريف الخـــــدرِ
قولي لها تمهلـــــي
ببابـــه وانتظـــــري
قولـــي لهـــا لديـــــه
بعد كتـــبٌ لـــم تنشر
قصائدٌ مـــا نُظمـــت
عـــن جـزرٍ لـــم تعبـر
وقصـــص ما كُتبـــت
عن الحيـــاري البشر
وموعدٌ لَمّـــا يحـــــن
مع الرياح الأُخَـــــر[٤٣].

أما مرحلة الستين وما بعدها، فقد تجلت بوضوح في ديوانيه:(**يا فدى ناظريك**) و(**حديقة الغروب**)، وإن كان ديوانه: (**يا فدى ناظريك**) قد حفل بأكثر هذه المعالجات الشعرية عن الستين[٤٤]،مع التأكيد أن كل معالجاته لمراحل العمر في شعره قد حملت شعوراً مشتركاً واحداً الا وهو الإحساس بوطأة هذه المرحلة وشدتها على نفسه؛ الأمر الذي جعله يشبِّه معايشته لها بمن يعانق السِّفار، أو بمن يمرُّ فوقه القطار؛ يقول مخاطباً حفيده سلمان، شارحاً له ما يحسه في الستين:

---

(٣٥) ديوانه:" عقد من الحجارة" ، ص٢٣-٢٤.
(٣٦) انظر: "سيرة شعرية ج٢"، ص٢٧-٢٨.
(٣٧) "المرجع السابق "، ص٢٨.
(٣٨) ديوان: "عقد من الحجارة"، ص٢٦.
(٣٩)" المصدر السابق "، ص٢٦-٢٧.
(٤٠) "المصدر نفسه"، والصفحة نفسها.
(٤١) "سيرة شعرية ج٢"، ص٥٦-٥٧.
(٤٢) "شعر غازي القصيبي: دراسة متينة" ، ص٨٣.
(٤٣) ديوانه:" ورودٌ على ضفائر سناء"، ص٣١-٣٢
(٤٤) انظر ديوانه: "يا فدى ناظريك"، ص١٥، ٤٢، ٦٣، ٨٢.

سلمان !
لو تعرف ما يـدور
في عالم الكبـــار
كنت بكيت ألماً
لجدكِ المسكيـن
يعانق الستيـــــن
كأنه يعانق الشفّار
ويلمح السنيـــــن
وهي تمرُّ فوقه مثل القطار(٤٥).

وهنا تبرز حرقة السنين وألمها، والإحساس الموجع، كما يبرز الإحساس بالملل، وطول السفر، والبعد عن الأحبة، وتأتي قصيدته: (**حديقة الغروب**) مجسدة لكل هذه الأبعاد، إذ يقول فيها:

خمس وستون في أحضان إعصار
أما سئمت ارتحالاً أيها الساري؟
أما مللت من الأسفار ما هدأت
إلاّ وألقتك في وعثاء أسفاري؟
أما تعبت من الأعداء ما برحـوا
يحاورونكَ بالكبريت والنـــــــارِ؟
والصحب؟ أين رفاق الصحب؟ هل بقيت
سوى ثمالة أيامٍ وتذكـــــــارِ؟
بلى! اكتفيت ! وأضناني السُّرى وشكا
قلبي العناء ولكن تلك أقداري(٤٦).

وفي هذه المرحلة برزت المرأة حاضرة في التناول الشعري من خلال صورتين:

الأولى: المرأة المعشوقة التي تغري بحبها، وجمالها روح الشاعر الباحثة عن الحب في هذا السن:

برزتِ في عامي الستين تغويـنـــــي
يا نشوة العيش يا أحلى الشياطيـن
إذا شكوت من الإعياء أيقظنـــــــي
شوق إلى الشوق يدعوني فيحينـي
وإن تململتُ من ضعفي أطلَّ هوىً
غضُّ الشباب إلى العشرين يلونـي
هذي المغامرة الحسناء أعشقهـــا
برغم ما أغمدت بي من سكاكينِ(٤٧).

والثانية: المرأة الزوجة الوفية رغم كل سنين العمر التي لم تغير وفائها، وحبها، وإخلاصها:

أيا رفيقة دربي لو لديَّ ســـوى
عمري لقلت فدى عينيك أعمار
أحببتني وشبابـي في فتوتـــــــــه
وما تغيرت والأوجـاع سُمّـــاري
منحتني من كنوز الحبّ أنفسها
وكنتُ لولا نداكِ الجائع العاري(٤٨).

وهو إزاء صورة المرأة في الحالتين يتجلى أمام الصورة الأولى: العاشق الذي يحاول تجاوز عتبة العمر ليعود المحب ذو القلب الطفولي المتيم في لحظةٍ مُغَامِرة يتجاوز فيها الزمن، وسنواته العجاف:

هيهات ما زال صوت العود يطربني
ولا يزال جمال الكون يغريني
ولا يزال فؤادي في طفولتـــه
متماً بعيـــون الخُـــرَّد العِيـــنِ
هيهات يا عاذلاً أقطعته صممـــــي
لا تطلب العقل ما بين المجانين
هذي المُغَامِرةُ الحمقاء أعشقها
أحيا... وأفنى فأحيا في دواويني(٤٩).

ولكنه سرعان ما يقف على الحقيقة المرّة، حقيقة العمر والمرحلة التي يعيشها، والتي تعافها كل فاتنه حسناء يقول: على لسان تلك المرأة:

يا أيها الكهل أزعجت الورى أفـــلا
أغمضت جفنك من حينٍ إلى حينِ
....
يا ايها الكهل في المرآة لو نظرت
عيناك أبصرتَ إخفاق المعاجيـــن
يا أيها الكهل لا تحلم بفاتنـــــــة
حلم الصحار بحقل من رياحين(٥٠).

وتأتي قصيدته: (**سيدتي السبعون**) أخر نغمٍ شعري يخضه القصيبي لرصد مراحل العمر عنده، عازفاً على ذات الوتر الشعري الذي عزفه في قصائده التي خصها لذلك، ناهلاً من ذات الورد، وإن كانت قد حملت تأبيناً لذاته، وشعوراً شجياً بدنو الأجل، وقرب النهاية؛ لذا فهو يصف الحياة بعد السبعين بنغمة تقطر حزناً، وألماً بعد أن ولى شبابه وصباه، ولم يبق له ما ينتظره إلاّ الأجل المحتوم(٥١)، موظفاً اساليب الاستفهام، والديالوج الذاتي الذي يبرز به الصورة الحزينة التي تملأ عليه ذاته، مصوراً السبعين كالحة الوجه، حاسرة الأنياب:

ماذا تريدُ من السبعين يا رجـــلاً
لا أنت أنت ولا أيامـــــك الأولُ
جاءتك حاسرة الأنياب كالحـــة
كأنّما هي وجه سلـــــة الأجـــلُ
...

---

(٤٥) " المصدر السابق "، ص١٤-١٥.

(٤٦) ديوان:" حديقة الغروب"، ص١٣-١٤.

(٤٧) ديوانه:" يا فدى ناظريك"، ص٦٥-٦٦.

(٤٨) ديوانه:" حديقة الغروب"، ص١٤-١٥.

(٤٩) ديوانه: "يا فدى ناظريك"، ص٦٧.

(٥٠) ديوانه:"يافدى ناظريك "، ص٦٦-٦٧.

(٥١) انظر في تحليل القصيدة: "قصيدة وقراءة: رحلة إلى عالم غازي القصيبي الشعري"، صحيفة الجزيرة ، ع١٣٨٥٢، (رمضان، ٢٢، ١٤٣١هـ).

أواه سيدتي السبعون معـــــــــذرة
إذا التقينا ولم يعصف بي الجذلُ
...
أواه سيدتي السبعـــــون معـــذرةً
بأي شيء من الأشياء نختفـــلُ؟
أبالشباب الذي شابت حدائقه
أم بالأماني التي باليأس تشتعلُ؟
أم بالحياة التي ولـــتْ نضارتهـا
أم بالعزيمة أصمتْ قلبها العللُ؟
أم بالرفاق الأحباء الأُلى ذهبوا
وخلفوني لعيشٍ أنسه الملل؟[٥٢].

المحور الثاني:

مراحل العمر: البعد النفسي (الزمن الداخلي):

تجاوز تعبير القصيبي عن مراحل العمر من التعبير عن الزمن الخارجي المتمثل في مرور السنوات العمرية إلى التعبير عن الإحساس بالزمن وهو ما يمكن أن يطلق عليه: (الزمن الداخلي)، أو (البعد النفسي)، بما يمثله هذا الإحساس من مشاعر محتدمة تتنوع بتنوع وامتداد مراحل العمر، وأن كانت هذه المشاعر الوجدانية الداخلية قد تنوعت إلاَّ أن الباحث يقف على عدد من هذه المشاعر لعل من أبرزها:

الحنين إلى الماضي، والبحث عن الحب، والخوف من المستقبل، والملل من الحياة، وفقدان الأصحاب، والشعور بالفقد، والحزن والتشاؤم ، والإحساس بالوحدة، واليأس، والإحباط، ومحاولة التشبث بالحياة....، ولعله فيما سبق الاستشهاد به من النماذج الشعرية ما يكشف بجلاء عن كل هذه الفيوض من المشاعر داخل نفس الشاعر، وهذه المشاعر رغم حدَّتها في معالجات القصيبي عن مراحل العمر إلاَّ أنها تأخذ عنفوانها الشديد كلما تقدم الشاعر في مراحل عمره؛ إذ كلما تقدم الشاعر في عمره زاد إحساسه بالوحدة، وتنكر الأصحاب، وفقد الخلان، وإن كان القصيبي قد ظلَّ طوال عمره عاشقاً محباً متشبثاً بالمرأة، وبحبها ، وعشقها ، راغباً في وصالها ،والقرب منها ، فالمرأة في شعر القصيبي "تمثل البعد الأساسي من أبعاد رؤيته، فهي حاضرة في جلِّ تجاربه الشعرية. إنها غالباً ما تكون ملاذاً، وملجأً، وصمام أمان، وزورق نجاة، فهي بالنسبة إليه ليست امرأة أحبها... وعاش يتعذب من أجلها، ولكنها بالنسبة إليه الخلاص، والملاذ، والملجأ، إنه يأوي إليها دائماً باحثاً عن الأمان، والطُّهر، والنقاء"[٥٣]؛ ومع هذا فإن المتأمل يلحظ الشاعر في أخر حياته حيناً يفزع إلى الاعتراف بانطفاء جذوة العشق في نفسه حين يصل إلى حديقة غروب العمر:

ماذا تريدين مني؟ إننـــــي شبـــــحٌ
يهيم ما بين أغـــــلال وأســـــوار
هذي حديقة عمري في الغروب كما
رأيتِ مرعى خريفٍ جائعٍ ضـــــار
الطيرُ هاجر والأغصـــان شاحبـــةٌ
والورد أطرق يبكـــي عهـــد آذارِ
لا تتبعيني !دعيني واقرئـي كتبـــي
فبين أوراقها تلقـــاكِ أخبـــاري[٥٤].

وحيناً آخر تجده يتراجع إلى ماضيه، وعشقه، وحبه الجارف للمرأة:

إن ساءلوكِ فقولي كان يعشقني
بكل ما فيه من عنفٍ وإصرار[٥٥].

غير أن الإحساس بالزمن الداخلي لمراحل العمر عند القصيبي يبرز فيه جانب شديد الوضوح؛ وخاصة في قصائده في مرحلة الكهولة ألا وهو: جانب الضراعة ،والمناجاة الإلهية ، والتعلق بالله، والاعتراف بالذنب، والرجاء في عفوه تعالى ورحمته، والأمل الذي لا ينقطع مداه في سعة غفرانه، ويتجلى هذا المسلك في شعر الخمسين، والستين، والسبعين، وهو نغم يعزف فيه القصيبي على وتر التجرد من ملاهي الحياة، والتعلق بالآخرة والخوف من يوم القيامة، من مثل قوله:

ربَّاه... في نصف قرنٍ مـا يُردُّ بـــــه
رشدُ الغوي... وما يهـدي وما يـــزعُ
ربَّاه... ويليّ من يـوم جمعـــتَ لـــه
شتى الذنوب.. ويلقى الناس ما جمعوا
أتخمتُ من زهرة الدُّنيـــا وزخرفهـــا
ولم يعد في سوى أخراك لي طمعُ[٥٦].

وقوله:

يا عالم الغيب ذنبي أنـــت تعرفـــه
وأنت تعلم إعلانـــــي وإســـراري
وأنت أدرى بإيمان مننـــتَ بـــه
علي ما خدَّشتُـــــه كـــــل أوزاري[٥٧].

وقوله:

إذا رأيتُ خطاياي التي احتشـــــدت
أوشكتُ أهلكُ من خوفي ومن خذري
حينًا وأذكر عفو الله تشفـــعُ لـــي
ستون عاماً من الإيمان ذا عمـري[٥٨].

---

(٥٢) صحيفة "الجزيرة"، ع١٣٦٧٤، (الأحد٢١-ربيع الأول، ١٤٣١هـ).

(٥٣) "النزعة الإنسانية في شعر أبي القاسم الشابي، وغازي القصيبي"، ص١٥٦.

(٥٤) ديوانه:" حديقة الغروب"، ص١٦.

(٥٥) "المصدر السابق "، ص١٥.

(٥٦) ديوانه:" عقد من الحجارة"، ص٢٧.

(٥٧) ديوانه:" حديقة الغروب"، ص١٨.

(٥٨) ديوانه:" يا فدى ناظريك"، ص٧٨.

المحور الثالث:

مراحل العمر: الموقف والرؤية:

تكاد لا تكتمل النظرة إلى مراحل العمر عند غازي القصيبي إلاَّ بالنظر في موقفه ورؤيته للزمن بعامة، ومراحل العمر المختلفة التي تناولها في شعره على وجه الخصوص من خلال ثلاث محطات رئيسة هي:

الموقف من الزمن ، والموقف من الشيب، والموقف من الموت، وما ذلك إلاَّ لأمرين:

الأول: لكون "الموقف هو الذات كلها، والذات ليست شيئاً آخر غير موقفها"[٥٩].

والثاني: إن هذه المحطات الثلاث: الزمن، والشيب، والموت هي: المشكلات الحقيقية للزمن العمري وكشف الرؤية لهذه الأمور يبرز موقف الشاعر من مراحل العمر ،ونظرته إليها؛ هذا الموقف الذي يتشكَّل في ذات الإنسان من خلال مشكلات كثيرة: حياتية، وثقافية، ونفسية، واجتماعية... وبامتزاج كل هذه الأمور يخرج لنا موقف المبدع مما يعالجه، أو يعايشه، ومن هنا (فالموقف هو تفسير عملي لوجود الذات) [٦٠]، مع إدراك أن تجلية الموقف الشعري لأي قضية عند أي مبدع يحتاج إلى سبرٍ دقيقٍ لكل نتاجه الإبداعي بعين فاحصة حتى يكون الحكم دقيقاً وشاملاً، إلاَّ أن ما يُعني به البحث هنا ليس هو موقف الشاعر بعامة بقدر عنايته تسليط الضوء على موقف القصيبي من مراحل العمر بوصفها: زمناً يعاش، وعمراً يمضيه الإنسان، مجانبا عما عدا ذلك من مواقف للشاعر لاضطلاع عدد من الدراسات بذلك بالتفصيل[٦١].

وعليه فإن استجلاء موقف القصيبي من مراحل العمر يستدعي الوقف على المحطات الثلاث التي يمكن من خلال كشف جوانب من هذا الوقف وهي:

١-الموقف من الزمن:

"يعدُّ الزمان من الأمور الغامضة في الحياة التي تثير تأملاً فاجعاً، وتستدعي حذراً موجعاً، وتستوجب تحديد موقف منها، إنَّ للشعراء على اختلاف ظروفهم وميولهم موقفاً واحداً إزاء الزمن، فهو الخوف العميق من الزمن، ففكرة الزمان ترتبط في أذهان القدماء بفكرة الوجود المحكوم بالموت والغناء"[٦٢].

وينطلق موقف القصيبي من الزمن من خلال إحساسه المؤلم به، وخوفه من مراحله المتعددة، ؛ ولهذا فإن الإحساس بالزمن والموقف منه" يتخذ لدى القصيبي بعداً مأساوياً، وخاصة في قصائده بعد بلوغه الأربعين، وقد سُئل عن خوفه من العمر فقال: أشعر بوطأته بشكل غريب، ومرضي، الأصدقاء الذين في سني من غير الشعراء يتضايقون من ذلك، ويَّذكروني أني مثلهم، ولكنهم يكبرون من غير شكوى"[٦٣]؛ ولهذا يجد الناظر شكواه من الزمن، وإحساسه الشديد به، وتوقفه عند كل مرحلة عمرية فيه.

لقد ظل القصيبي متعشقاً الماضي، متمنياً العودة إلى الطفولة، مناشداً زمن البراءة، متراجعاً للأزمنة الجميلة في حياته الماضية، متأسفاً على لحظات الشباب وزمانه الوردي:

أمرُّ على دار المسَّرة كاسفـــــــــــاً
وكم كنتُ آتيها ونفسي تغـــــــــردُ
هنا كان لي عمرٌ جميلٌ ورفقـــــــةٌ
كرام وأشعارٌ حسانٌ تُـــــــــــرددُ
...
هنا كانت الدنيا وكنَّا ملوكهـــــــــا
وكان لنا عرسٌ وسعدٌ وســــــــؤددُ
...
سلام على عمر الشباب الذي انقضى
وأواه لو كان الشبابُ يُخلَّـــــــــــدُ(٦٤).

٢-الموقف من الشيب:

رغم شدة وقع الزمن على نفس القصيبي، ورغم تأسفه على الشباب وبكائه عليه، وتبرمه بمرحلة الكهولة إلاَّ أن حديثه عن الشيب- بوصفه ظاهرة من الظواهر العمرية، ومفرزاً من مفرزاتها- قد جاء هادئاً أقرب ما يكون إلى التقبُّل، وأبعد عن النحيب والبكاء، مع ما يصاحب ذلك من كراهية هذا الشيب والنفور منه، وعدم الاحتفال به، كونه نذيراً من نذر النهاية، يهدد الحياة، ويؤذن بالغياب، وقد اتسم حديث القصيبي عن الشيب في الغالب السمات بثلاث سمات:

الأولى: الواقعية في تقبل الشيب:

مالت على الشعرات البيض تقطفهـــا
يارا وتضحك لا أرضى لك الكِبـــــَـرا

يا دميتي هبكِ طاردت المشيب هنـــا
فما احتيالكِ في الشيب الذي استترا؟[٦٥].

---

(٥٩) "شعر غازي القصيبي: دراسة فنية"، ص٦٨.

(٦٠) "المرجع السابق " والصفحة نفسها.

(٦١) انظر على سبيل المثال:" شعر غازي القصيبي : دراسة فنية"، ص٦٧-١٦٢.

(٦٢) "الموت في الشعر العباسي"، ص٤٢.

(٦٣) "النص وإشكالية المعنى"، ص١١٥، وانظر نصل كلام القصيبي في كتابه:" سيرة شعرية"، ص١١٥.

(٦٤) ديوانه:" حديقة الغروب"، ص٣٢-٣٣.

(٦٥) "المجموعة الشعرية الكاملة"، ص٦٩٥.

والثانية: محاولة تغيير الرؤية إلى الشيب من الرؤية السلبية إلى الرؤية الإيجابية التي تتجاوز بدلالات الشيب البعد الحسي إلى دلالات أعمق وأبعد كقوله:

ما الشيبُ أن تفقد الألوان نظرتها
الشيب أن يسقط الإنسان مندحرا[٦٦].

والثالثة: ارتباط الحديث عن الشيب عند القصيبي –كما هو في جلِّ معالجاته الشعرية عن مراحل العمر- بالمرأة سواءً أكانت امرأة واقعية: (زوجاً –بنتاً)، أم كانت امرأة معشوقة متخيلة، وهي في الحالتين تغدو ملاذ الشاعر الآمن الذي يفرُّ إليه من واقعه المأزوم وحياته المغتربة[٦٧].

٣-الموقف من الموت:

تناول غازي القصيبي الموت من خلال معالجاته مراحل العمر بوصفه محطة من محطات الزمن، ونهاية طبيعية لكل الموجودات الحية يثير في الإنسان فيضاً من التساؤلات الجدلية عبر العلاقة بين الحياة والموت، والبقاء والفناء، والوجود والمصير، والبداية والنهاية، وكذلك تناول القصيبي الموت عبر مراثيه الكثيرة التي خص بها أقاربه، وأصدقاءه، وأحبابه الذين غادروا الحياة وتركوه خلفهم، وفي تناول القصيبي الموت يلحظ الناظر أنه جاء متسماً بما يلي:

أولاً: جاء قاصداً بعيداً عن الخوف، والفزع، والتسخط، والرهبة المرضية من هذه النهاية الحتمية التي هي نهاية كل حي، ومصيره المحتوم؛ مما أدى به إلى تقبل هذه النهاية وإن كانت هناك داخل أعماق نفسه نوازع المقاومة الطبيعية للفرار منه بفيضٍ من الرغبات والأمنيات للعودة إلى الماضين والرجوع إلى سن الشباب والطفولة، وايام العمر البهية-شأن كل كائن إنساني- بل إن القصيبي في كثير من الأحيان يتجاوز مرحلة الاستسلام والرضى بالنهاية إلى حسن الرجاء بالله، وحب لقياه.

أحببتُ لقياك حسن الظنّ يشفع لي
أيرتجى العفو إلاَّ عند غفـــــــــار؟[٦٨].

ومن المؤكد أن هذا الموقف من الموت تولد عنه نتيجة للتصور الإسلامي للموت الذي تشكل في نفس الشاعر نظراً لمكونات تأتي النشأة، والتربية ، والثقافة الإسلامية التي تشربها في مقدمتها، وبالتالي كان الإيمان والتوحيد، والرضى بالمصير هو النتيجة الطبيعية التي تؤول إليها قناعة الشاعر، وهذا ما يؤكده حين يقول:

واستريح إلى التوحيـد يغمرنـــــي
سناه في القلب والآماق والفكر[٦٩].

ومن هنا كان الموت عنده سنة الحياة التي لابد منها، وهذا ما عكسته معالجاته الشعرية.

ثانياً: نظر القصيبي إلى الموت نظرة تتجاوز به طبيعة الفناء إلى كونه محرراً "يخلص الروح والجسد من عبودة الحياة، ويعتقها من سلطة الزمن إلى رحاب الحرية المطلقة بعودتها إلى الأصل"[٧٠]:

الموت أن تنتفض الروح على قيودها
تفرُّ من سجَّانها
وترتمي بشوقها الكبير في خلودها[٧١].

ثالثاً: ارتباط الموت عند القصيبي بثنائية الحب والبطولة، ولعلَّ في ارتباط هذه الثنائية مقاومة نفسية عميقة لفكرة الغياب، والفناء، وتكريس لفكرة الوجود:

إن ساءلوكِ فقولي لم أبع قلمي
ولم أدنس بسوق الزيف أفكاري
وإن مضيتُ فقولي لم يكن بطلاً
وكان طفلي ومحبوبي وقيثاري[٧٢].

رابعاً: ارتباط الموت عند القصيبي بظاهرتين: ظاهرة الإيجابية في جانب محبيه الذين فقدهم في حياته فرثاهم بشعر يقطر أسىً وحزناً[٧٣].

وظاهرة السلبية في الناس الذين ناصبوه العداء، والحسد حتى على موته لم يسلم من شامتتهم وحسدهم:

ويشمت بي حتى على الموت طغمة
غدت في زمان المكر أسطورة المكر[٧٤].

---

(٦٦) "المصدر السابق"، ص٦٩٦.

(٦٧) انظر: "دراسات جمالية في الشعر السعودي الجديد"، ص٦٢، ٦٤.

(٦٨) ديوانه:" حديقة الغروب"، ص١٨.

(٦٩) ديوانه:" يا فدى ناظريك"، ص٧٨.

(٧٠) "شعر غازي القصيبي :دراسة فنية"، ص٨٠.

(٧١) "المجموعة الشعرية الكاملة"، ص٣٩٦.

(٧٢) ديوانه:" حديقة الغروب"، ص١٧.

(٧٣) انظر على سبيل المثال ديوان: "حديقة الغروب"، ص٢٥، ٣٥، ٤٧، ٦٩، وديوانه "" يا فدى ناظريك"، ص٣٥، ٦٩.

(٧٤) ديوانه:" حديقة الغروب"، ص٦٤.

وفي كلا الظاهرتين يتسم الموت عند القصيبي بأحاسيس وجدانية مختلفة ففي الأولى يتسم بأحاسيس الفقد والألم والحزن، والوجد وعلى الأحباب الذين غيبهم الموت، ومن ثمَّ الرضى بما كتبه الله وقدره، وفي الظاهرة الثانية، يتسم تناول الموت عنده بالألم، والحزن ولكنه ألم ليس من الموت بل من الذين امتلأت قلوبهم حقداً وحسداً حتى على موته لم يسلم من أذاهم وحسدهم.

الخاتمة :

ناقش البحث مراحل العمر في شعر غازي القصيبي من خلال بعدي: الرؤية والتشكيل ؛ بوصف هذا الموضوع من الموضوعات التي نالت عناية واهتماماً عند الشاعر ، وحظيت بنصيب وافر من معالجاته الشعرية على طول امتداد حياته العمرية ونتاجه الشعري ، وقد حاول البحث الكشف عن تناول الشاعر مراحل العمر ابتداءً من مرحلة الطفولة ومرورًا بمرحلة النضج والشباب وصولاً إلى مرحلة الكهولة ، مبرزاً رؤية الشاعر ومواقفه من العمر ومراحله من خلال رؤيته للزمن والشيب ، والموت ، وقد توصل البحث إلى نتائج من أبرزها :

١- شكل الاحساس بالزمن للشاعر غازي القصيبي ضاغطا نفسيا وحياتيا دفع به إلى تناوله مراحل العمر المختلفة تناولاً واسعاً في نتاجه الشعري .

٢- امتزج تناول القصيبي مراحل العمر بالحزن ، والألم ، والتحسر على الماضي من عمره وحياته ما عدا مرحلة الطفولة التي تراجع إليها الشاعر بذاكرته بنفس متشوقة لعودتها وعودة أيامها الجميلة وأحلامها البريئة وصفائها الذي ما فتئ يتذكره ويحنُّ له ؛ وهو في سبيل هذا التمني غالباً ما يصنع عالمين متقابلين : عالم الطفولة البريء الذي يتمنى عودته ورجوعه ، وعالم الكبار بنفاقه وزيفه الذي يفر منه ويمقته .

٣- رغم تبرم الشاعر بمرور العمر وانقضاء الزمن إلا أنه حاول أن يعيد صياغة خريف العمر وخاصة مرحلة الخمسين وما بعدها ؛ وذلك من خلال خلق أزمنة محوَّرة والعودة إلى شريط الذكريات ، والتراجع إلى الماضي ؛ الأمر الذي وجد فيه سلوة نفسية عن زمنيه الداخلي والخارجي المليئين بالآلام والعذاب.

٤- شكلت المرأة حضورًا لافتاً في معالجات القصيبي لمراحل العمر عبر أشكال وتمظهرات متنوعة ، فقد حضرت محبوبةً ومعشوقة وأما وبنتًا وزوجة ورمزًا للوطن والأرض والوفاء والحب والعمر الجميل ؛ وبهذا غدت المرأة في هذه المعالجات أوسع مدىً وأعمق دلالة حين تجسدت في صورة المرأة الملاذ والملجأ والأمان التي يأوي إليها الشاعر ليجد عندها الأمان والنقاء والطمأنينة.

٥- جاء تعبير القصيبي عن الزمن الداخلي أو ما يمكن ان يُطلق عليه : (الزمن النفسي) تعبيرًا محتشدًا بمشاعر الحنين الدائم إلى الماضي المفقود ، والبحث عن المستقبل المنشود ، والملل من الحياة ، وشكوى فقدان الأصحاب، ومحاولة التشبث بالحياة ، والتعلق بآمال الحب ، مازجاً ذلك كله - وخاصة في معالجاته التي تناولت مرحلة الكهولة - بالضراعة إلى الله والاعتراف بالذنب والتعلق بالآخرة والرجاء في عفو الله ورحمته ومغفرته .

٦- تناول القصيبي الشيب بوصفة ظاهرة من الظواهر العمرية تناولاً اتسم بالوقيعة محاولاً تجاوز الرؤية السلبية للشيب إلى الرؤية الإيجابية التي لا ترى فيه مجرد الدلالة اللونية فحسب بل ترى أن الشيب الحقيقي ليس هو تغير الألوان وإنما سقوط الإنسان وترديه في مهاوى الردى والرذيلة .

٧- نظر القصيبي إلى الموت نظرة تتجاوز به طبيعة الفناء إلى كونه مخلِّصاً للروح والجسد من أغلال الأسر إلى رحابة الحرية ؛ الأمر الذي وسم تناوله الموت بشيء من الرضى والتقبل والبعد عن الفزع والرهبة المرضية من ملاقاته ، مازجاً ذلك بالحديث عن البطولة الذاتية والحب للمرأة والغضب من الحاسدين الذين حتى على موته لا ينجو من حسدهم ومكرهم .

المراجع:

"آفاق شعرية: قراءة لما وراء النص"، مُحَمَّد محمود جاد، ط(١)، (إصدارات نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.(

"الاستثناء.. غازي القصيبي: شهادات ودراسات"، ط(١)، (الرياض: إصدارات مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر، ٢٠٠٩م.(

"حديقة الغروب"، ديوان شعري، غازي القصيبي، ط(١)، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.(

"دراسات جمالية في الشعر السعودي الجديد"، عبد الله خلف العسَّاف، ط(١)، (الرياض: إصدارات مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.(

"الرومانسية في الشعر السعودي الحديث"، د. إقبال مُحَمَّد العرفج، ط(١)، (إصدارات النادي الادبي بالإحساء، ١٤٠٣هـ/٢٠٠٩م.(

"سيرة شعرية"، غازي القصيبي، ط(٢)، (جدة: مطبوعات تهامة، ١٩٨٨/١٤٠٨م.(

"سيرة شعرية ج٢"، غازي عبد الرحمن القصيبي، ط(١)، (جدة: مطبوعات تهامة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.(

"الشاعر وذاكرة الطفولة في الشعر العربي الحديث"، عمر أحمد الريحات، رسالة دكتوراه، (الأردن: جامعة مؤتة، ٢٠١٠م.(

"شعر غازي القصيبي: دراسة فنية"، مُحَمَّد الصفراني، ط(١)، الرياض: (إصدارات مؤسسة اليمامة الصحفية، كتاب الرياض، ٢٠٠٢م.(

"عقدٌ من الحجارة"، ديوان شعري، غازي عبد الرحمن القصيبي، ط(٣)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١١م.(

"غازي القصيبي: حياته ومختارات من شعره"، د. مُحَمَّد الصفراني، ط(١)، (الكويت: منشورات مؤسسة عبد العزيز سعود البابطين، ٢٠٠١م.(

"قضية الزمن في الشعر العربي: الشباب والمشيب"، د. فاطمة محجوب، (مصر: دار المعارف، ١٩٩٨م.(

"صورة المرأة في شعر غازي القصيبي: دراسة تحليلية"، أحمد بن سليمان اللهيب، ط(١)، (دمشق: دار الطليعة الجديدة، ٢٠٠٣م.(

"صحيفة الجزيرة السعودية"، عدد ١٣٨٥٢، (٢٢رمضان١٤٣١هـ.(

"المجموعة الشعرية الكاملة"، غازي عبد الرحمن القصيبي، ط(١)، (البحرين: دار المسيرة للطباعة والنشر، ١٤٠٧هـ/١٩٠٧م.(

"الموت في الشعر العباسي"، حنان أحمد خليل الجمل، رسالة ماجستير، (فلسطين: جامعة النجاح الوطنية، ٢٠٠٣م.(

"موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين خلال مائة عام"، أحمد سعيد بن سليم، ط(٢)، (مطبوعات نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٩٩٩/١٤٢٠م.(

"النزعة الإنسانية في الشعر بين أبي القاسم الشابي وغازي القصيبي"، هيفاء بنت رشيد الجهني، رسالة دكتوراه"، (مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ.(

"النص وإشكالية المعنى"، د. عبد الله مُحَمَّد العضيبي، ط(١)، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.(

"ورود على ضفائر سناء"، ديوان شعري، غازي القصيبي، ط(١)، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٦م.(

21- "يا فدى ناظريك"، ديوان شعري، غازي القصيبي، ط(١)، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.(

Age Stages in the Poems of Ghazi Al-Kosaibi, Vision and Composition

H. H. Dighreeri
Faculty of Arts and Humanities, Jazan Uninersity, KSA

Abstract

This work studies the age stages in the life of Ghazi Abdurrahman Al-Kosaibi starting from his childhood until mid-age and old-age, his age stages formed a unique poetic melody, innovative and distinctive period with a vast diversity of his poetic. Our research aimed to analyse the effect of age stages on the poetic of Gazi Al-Kosaibi across three axes: Stages of life and the dimension of time, stages of life and the psychological dimension, and the stages of life: attitude and vision. Hopefully, this research lighted this feature creative of Al-Kosaibi.

Keywords: Ghazi Al-Kosaibi, life stages, poetic melody, vision, composition.